الخضاب في الشعر العربي
دراسة فنية

د. زاهر محمد حنني
أستاذ النقد الأدبي الحديث المشارك

د. أحمد عبد الرؤوف جبر
أستاذ الأدب العربي الحديث المساعد

جامعة القدس المفتوحة/ فرع قلقيلية

ملخص:
يرصد هذا البحث تجليات الخضاب في نفس الشاعر العربي، من خلال الدخول إلى مفهوم الخضاب في اللغة والاصطلاح، ثم عرض تجليات الخضاب في الشعر العربي، ثم تحليل آفاق ذم الخضاب وآفاق مدح الخضاب. ليتبين أن الخضاب في الشعر العربي يسير في مسارين متجاورين: مسار فني، ومسار نفسي؛ فالفني يحاول الشاعر من خلاله التعبير بفنية عالية متناسبة مع جماليات القصيدة التي يرنو لها، والنفسي الذي لم يقصد الشاعر أن يعبر من خلاله عما في دواخله من رغبة أو رهبة أو خوف أو حب بشكل مباشر، ولكن المتلقي يستطيع الولوج إلى نفسه ويستشعر تلك الدواخل ويحللها.

كلمات مفتاحية: تجليات، الخضاب، الشعر العربي

مقدمة :

اهتم الشعراء العرب بكثير من التفاصيل التي قد تبدو في النظرة الخارجية أو السطحية إليها غير مهمة، وعند البحث فيها والولوج في أعماقها، نجدها تمثل رأيا في الحياة أو في بعض تفاصيلها، والخضاب في الشعر قد يبدو في باب وصف الجمال الخارجي أو حسن التعليل أو

إظهار براعة الشاعر، إلا أنه في الحقيقة يعكس إحساسا داخليا لم يعبر الشاعر عنه مباشرة، بل ذهب إلى التعبير عنه بصيغ مختلفة. ولعل ما دفعنا لهذا البحث هو رغبة الدخول إلى كنه النص وأعماقه الداخلية، واستكناه رؤى الشاعر التي لم يرد الإفصاح عنها علانية، وأضمرها في نفسه، فعبر عنها شعره، وحملها إلينا، فأدركها من أدركها، وغابت عن عامتهم تجلياتها. لهذا فقد تطلب البحث أن يكون في أربعة أقسام؛ يتناول القسم الأول بيان مفهوم الخضاب في اللغة والاصطلاح، وأما القسم الثاني فقد تناول الخضاب في الشعر العربي عموما؛ ليبين حقيقة وجوده، واهتمام الشعراء العرب به ليكون ظاهرة شعرية لم يختص بها زمن دون آخر. وتناول القسم الثالث ذم الخضاب، ورؤى الشعراء وتعليلهم لذمه، وكان ذلك كله بأثر كراهية الشيب، أو رفضا للتصنع، وقبولا بالطبيعي وتفضيله. وجاء القسم الرابع ليبحث في مدح الخضاب وتوجهات الشعراء في هذا الباب. يتخذ البحث المنهج الوصفي التحليلي منهجا له، إذ يهيئ للباحث مساحة من الحرية في تحليل النصوص وتأويلها على النحو الذي يبحث في وجود هذه الظاهرة وتجلياتها في الشعر العربي على مر العصور، أو ينفيها. يبدأ البحث بهذه المقدمة التي تبين أوليات البحث من حيث سبب اختياره وأهميته ومكوناتهومنهجيته. وينتهي بخاتمة تبين أبرز ما توصل إليه، وهو كشف عن تجليات صور الخضاب في الشعر العربي وأسبابه، ومواقف الشعراء منه، ويوصي بضرورة تجريب دراسة الظواهر الشعرية الكثيرة التي عكست ما أضمره الشعراء من هواجس تتعلق بحب الحياة.

أولا: مفهوم الخضاب في اللغة والاصطلاح

للخضاب في تراثنا الأدبي مساحة توشحت بنمو ألوانه ومواضع استعماله المختلفة، فقد وجد الخضاب مسارب له وسرى في أنواع مختلفة

من الأدب العربي بألوانه،كما شغل حيزا من الحياة الشعبية وبات جزءا منها؛ إذ خصته بليلة جميلة من ليالي الفرح سميت بليلة الحناء. والمستشرف لكتب التراث العربي يجد كثيرا من الأقوال المنثورة والشعرية في الخضاب حكما ومدحا وذما، وكثيرا ما اقترن ذكره بالشيب الذي تنوعت فيه الأقوال والأمثال مدحا وذما، وتباينت طرائق الشعراء في وصفه وعرضه بشكل يلبي رغباتهم ومواقفهم منه، ومنهم من زاد على ذلك فأنشأ فيه رسالة كما فعل أحمد بن علوية الأصبهاني الكلداني (ت ٣١٠هـ) في كتابه (رسالة في والشيب والخضاب) [١] وغيره [٢]. لا يثير المعنى اللغوي للخضاب كثيرا من الجدل، فمعاجم اللغة العربية تكاد تظهره وتتفق على معانيه، ففي اللسان "الخِضابُ: ما يُخضَبُ بِهِ من حِنّاءٍ، وكَتَمٍ ونحوه."[٣] وفي الصحاح "الخِضابُ: ما يُختضَبُ به"[٤] وبين خَضَب واختَضَب وخضَّبَ كثير من التشابه، فاخْتَضَب "بالحنَّاءِ ونحوه، وخَضَبَ الشيءَ يَخْضِبُه خَضْباً، وخَضَّبَه: غيَّر لوْنَه بحُمْرَةٍ، أَو صُفْرةٍ، أَو غيرِهما" [٥] والخضب ليس خاصا بالمرأة دون الرجل"خَضَبَ الرَّجلُ شَيْبَه بالحِنّاءِ يَخْضِبُه؛ والخِضابُ: الاسم. قال السهيلي: عبدُالمطَّلب أَوّلُ مَن خَضَبَ بالسَّوادِ من العرب.ويقال: اخْتَضَبَ الرَّجلُ واخْتَضَبَتِ المرأَةُ، من غير ذكر الشَّعرِ. وكلُّ ما غُيِّرَ لَوْنُهُ، فهو مَخْضُوبٌ، وخَضِيبٌ"[٦] ويضيف اللسان "وفي الحَديث: بَكَى حتى خضَبَ دَمْعُه الحَصى؛ قال ابن الأَثير: أَي بَلَّها، مِن طَريقِ الاسْتِعارةِ؛قال: والأَشْبَهُ أَن يكون أَراد المُبالغةَ في البُكاءِ، حتى احْمَرَّ دمعهُ، فَخَضَبَ الحَصى.والكَفُّ الخَضِيبُ: نَجْمٌ على التَّشْبِيه بذلك.وقد اخْتَضَبَ بالحِنَّاءِ ونحوه وتَخَضَّبَ، واسْمُ ما يُخْضَبُ به: الخِضابُ.والخُضَبةُ، مثال الهُمَزةِ: المرأَةُ الكثيرةُ الاخْتِضابِ"[٧]. أما ابن فارس في مقاييس اللغة فيبين أن "الخاء والضاد والباء أصلٌ واحدٌ، وهو خَضْبُ الشَّيء. يقال خضبت

اليدَ وغيرَها أَخْضِبُ.ويقال للظليم خاضِبٌ، وذلك إذا أَكَلَ الرَّبيعَ فاحمرَّ ظُنْبوباه أو اصفرَّا. قال أبو دُوَاد:

له ساقا ظليم خا

ضبٍ فُوجِئَ بالرُّعْبِ

ولا يقال إلاّ للظَّليم، دُونَ النعامة"[٨]. وخَضَبَت "الأرضُ: طَلَعَ نَباتُها، كأَخْضَبَتْ.والخَضْبُ: الجديد من النَّباتِ، يُمْطَرُ فَيَخْضَرُّ" [٩] وفي العين"نما الخضابُ ينمو نمواً، إذا زادَ حمرةً وسواداً"[١٠] وهكذا يتبين لنا أن الخضاب في اللغة هو ما يُختَضَبُ به لتغيير لونه إلى حمرة أو غيرها، واللون الأحمر هو الشائع في الإشارة إلى الخضاب، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي للخضاب، فهو في الاصطلاح تغيير لون اليدين أو الشعر ونحوه إلى الحمرة أو الصفرة ونحوهما. ويرى بعض أهل اللغة أنه يقال للرجل إذا اختضب بالحناء خاضب، وإذا كان بغير الحناء قيل صبغ شعره ولا يقال خضبه.[١١] وتكاد تجمع المصادر على أن أول من اختضب من البشر بالسواد هو فرعون، وأول من اختضب بالسواد من العرب هو عبد المطلب، جاء في فتح الباري:" وذكر ابن الكلبي أن أول من اختضب بالسواد من العرب عبد المطلب، وأما مطلقا ففرعون" [١٢] وأول من اختضب بالحناء والكتم هو إبراهيم النبي –عليه السلام–[١٣] وأول من اختضب في الإسلام هو أبو قحافة والد أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– "هو أول مخضوب في الإسلام، وهو أول من وَرَّثَ خليفة في الإسلام"[١٤].

ثانيا: الخضاب في الشعر العربي

وقفَ الشعرُ العربيُّ في جميعِ عصورِهِ وقفةً متأنيةً عند الخضابِ بوصفِهِ تغييراً للونِ الشَعرِ أو اليدين بالحناءِ أو الصبغِ أو الكَتَمِ ونحوه، وقد انقسمَ الشعراءُ في هذا إلى قسمين؛ الأول مدحُ الخضابِ، وفيهِ ذمٌ للشيبِ مثلا، أو تغزلٌ بحبيبةٍ سَرَّهُ خضابُها، أو تصابٍ وتشبيبٌ، أو كراهةٌ للمشيبِ وكبرِ السنِّ الذي يظهرُهُ الشيبُ. والثاني ذمُ الخضابِ

لما يخفيه من حقيقةِ العمرِ أو لنهيٍ عن بعضِهِ. ونتوقفُ هنا عندَ الشيبِ في الشِعرِ العربيِ ثمَّ نُسَرِّحُ الطَرْفَ في آفاقِ ذمِّ الخضابِ في الشعرِ العربيِ، قبلَ أنْ ننتقلَ إلى مَدْحِهِ. **الشَّيبُ** ظاهرةٌ طبيعيةٌ تعرِضُ للإنسانِ في مرحلةٍ متقدمةٍ نسبياً من حياتِهِ؛ إذ يبدأُ شَعرُهُ باكتسابِ اللونِ الأبيضِ بعدَ السوادِ تدريجياً، وبعضُ الناسِ يتقبلُهُ على مضضٍ وبعضُهم يُحاوِلُ محاربتَهُ،وآخرونَ يستثمرونَهُ لاكتسابِ الحكمةِ والتعبيرِ عنها، وقد عبَّرَ الشِّعرُ العربيُ عن هذِهِ الحالاتِ جميعا. فقد وصلنا منه شعر كثير، منه لعروة بن الورد (عروة الصعاليك) حيث قال[١٥]:

فما شابَ رأسي من سنين
تتابعتْ طِوالٍ ولكنْ شَيَّبَتْهُ الوقائعُ

فلم يرفض الشيب ولم يقبله ولكنه يعلل وجوده، ويأتي هذا في باب الرد على عتاب صاحبته له من كثرة الحروب، والاعتداد بالنفس وخوض كثير من الحروب، ومنه أيضاً ما ينسب للشاعر عنترة بن شداد[١٦]:

وقدْ لاقيتُ في سفري أموراً
تُشيِّبُ مَنْ لَهُ في المهدِ عامُ

ممّا يُؤكّدُ أنَّ الشّاعرَ أرادَ أن يوصِلَنا فكرةً، مفادهُا أنَّهُ طويلُ معاينةِ هموم الحياةِ ومآسيها، وخبيرٌ في أمورِها، وأنهُ تحمَّل تلك الهموم؛ الأمرُ الذي لا يَتَحَمَّلُهُ غيرُه، فهو صبورٌ، ولو عاينَ همومَهُ غيرُهُ، لشابَ حتّى لو كان في المهدِ صغيراً.ومن ذلك أيضاً ما اشتُهِرَ من قولِمالييءِ الدنيا وشاغلِ الناسِأبي الطيبِ المتنبي الذي رأى أنَّ الشبابَ شبابُ الروحِ[١٧]:

وَشَيْخٌ في الشبابِ وليسَ شَيخاً
يُسمّى كلُّ منْ بلغَالمشيبَا

وقد اختلف مع المتنبي شعراء آخرون في نظرتهم إلى الشيب؛ فهذا أبو العلاء المعري يجهر بجهالة من يصبغ شيبه لأن الله هو الذي أعطاه إياه، يقول[١٨]:

إذا قلتُ إنَّ الشيبَ للهِ صبغةٌ فقد
ضَلَّ بادي الغيِّ للشيبِ صانعُ
نوابغُ فودٍ لا يبالينَ خاضِباً
تروَّعَ منها جرولٌ والنوابغُ

في إشارةٍ منهُ إلى كبارِ الشعراءِ الذين يخافونَ الشيبَ، بل عدَّ المعرّي الرجلَ الذي يصبُغُ شيبَهُ كالمزوِّرِ عندما قال(١٩):

إذا طلعَ الشيبُ الملمُ فحيِّهِ
ولاترضَ للعينِ الشبابَ المزورا
لقدغابَ عن فوديكَ خمسينَ حجة
فأهلا به لما دنا وتسوَّرا
فمن عثراتِ المرءِ في الرأيِ أنَّهُ
إذا ما جرى ذكرُ الخضابِ تشوَّرَا

وها هو يطالبُ بتحيةِ الشيبِ وطلوعِهِ، وقد يعيشُ الإنسانُ خمسينَ عاماً دونَ شيبٍ، فما المانعُ من تحيتِهِ عندَ مجيئِهِ، ويخلصُ إلى حكمةٍ مفادُها أن من الأخطاءِ التي يقعُ فيها الإنسانُ أنَّهُ إذا ذُكِرَ الخضابُ يعتقدُ أن ذلكَ الأمرَ مخجلٌ، أو أنَهُ فَعَلَ ما يُخْجِلُهُ، وهذا يمثلُ موقِفاً واضحاً من الشيبِ، كي لا يكونَ المرءُ مزوراً في شكلِهِ، الأمرُ الذي ينعكسُ على مضمونِهِ. ولم يبتعد الشريف الرضي عن المعري في محاولته الدفاع عن الشيب، حين قال(٢٠):

مَسِيري إلى ليلِ الشبابِ ضَلالُ
وَشَيبِي ضِياءٌ في الورَى وَجَمالُ
سواد ولكن البياض سيادة،
وليل، ولكن النهار جلال
وما المرء قبل الشيب إلا مهند
صديٌّ، وشيب العارضين صقال
وليس خضاب المرء إلا تعلة
لمن شاب منه عارض وقذال

وقد دار أبو فراس الحمداني في الفلك نفسه حين قال(٢١):

رأيتُ الشيبَ لاحَ فقلتُ أَهلا
وَوَدّعْتُ الغوايةَ والشَّبابا
ومَا إنْ شِبْتُ منكبرٍ ولكنْ
رأيتُ منَ الأحبةِ ما أشَابا

ابن الرومي من الشعراء الذين تميزوا بالوقوف طويلا عند الخضاب مادحا مرة وذاما مرة أخرى ليصل في النهاية إلى حكمة انفرد بها تقر بواقع الخضاب، الذي يمزج بين الكذب والمكابرة والفلسفة والأسف والذكرى وبغض الحاضر والبكاء على أطلال الشباب الذي ولى في قصيدة جامعة لهذه المتناقضات معا، إذ يقول جامعا بين الحكمة والفائدة واللوعة(٢٢):

كفى بالشيب من ناه مطاع
على كره ومن داع مجاب
وقلت مسلما للشيب أهلا
بهادي المخطئين إلى الصواب
ألست مبشري في كل يوم
بوشك ترحلي أثر الشباب
لعمرك ماالحياة لكل حيإذا
فقد الشباب سوى عذاب
يذكرني الشباب صدى طويل
إلى برد الثنايا والرضاب
يذكرني الشباب هوان عتبي
وصد الغانيات لدى عتابي
يذكرني الشباب سهام لحظ
يصبن مقاتلي دون الإهاب
يذكرني الشباب جنان عدن
على جنبات أنهار عذاب
فيا أسفا ويا جزعا عليه
وياحزنا إلى يوم الحساب

وعلى هذا النهجِ سارَ كثير من الشعراءُ العربُ في العصرِ الحديثِ أيضا، فهذا البارودي يقولُ في الشيبِ[٢٣]:

لَعمري لَقَدْ ولّى الشبابُ وحلَّ بِي
مِنَ الشَّيبِ خَطْبٌ لا يُطاقُ مردُّهُ

وكذلك لا بد من الوقوف عند قصيدة لشاعر عربي حديث يعترف بهم الخضاب ولكنه يلقي على نوائب الدهر علته؛ فالزمن وما يفعله بالإنسان يشيب الإنسان الحديث، يقول الشاعر ثروت سليم[٢٤]:

شَيَّبَتْنَا من هَوْلِـها الأَيَّامُ
والأمانِـيُ والليالي الجِسَامُ
نَظَرَتْ لي وهَدْهَدَتْ فوقَ رأسي
بيدَيهَـا فأَشْرَقَ الابْتسَامُ
كُلَّمَا أَبْصَرَتْ بشعريَ شَيْباً
قَالتْ الشَيـبُ عِزَّةٌ وَوِسَامُ
قالتْ الشَيبُ مثل بَدْرٍ تجلَّى
في ليالي الدُجَى فماتَ الظلامُ
قالتْ الشَيبُ نَخْوَةٌ واكْتمَالٌ
وبُلُوغُ وقِوَةٌ واحْتـرَامُ

وعلى هذا الحوار دار رأي الشاعر في الشيب على أنه الحياة من وجهة نظرها، وهنا جاء على عكس ما كان الشعراء العرب يتغنون به، فقد كانت المرأة مُعَيِّرَةً بالشيب أو كارهة له أو مستنكرة، أما في هذا النص فنجد العكس، إنها تدافع عن الشيب وتعده مثل بدر تجلى ونخوة واكتمالا، ويرد

عليها مبينا أيضا الرأي المعاكس، وقد كان الشاعر العربي يدافع عن الشيب أما هنا فهو يذمه:

قُلتُ: لا لا تبالغي يا حياتي
إنما الشيبُ حَربَةٌ وحُسَامُ
إنما الشيبُ زَائِرٌ لا يُطَاقُ
وغريبٌ وإنهُ لا يُضَامُ
هو طَيرٌ مُحَمَّلٌ بثلوجٍ
من بلادٍ بعيدةٍ لا تَنَامُ
من بلادِ الصقيعِ والملحِ
يأْتي من بلادٍ تَحُوطُهَا الآثَامُ
من بلادٍ لا تُشْرِقُ الشمسُ فيها
غيرَ يَومٍ وتنتهي الأَيامُ
هكذا الشيبُ يا رفيقةَ دربي
ليَس إلا حوادِثُ واصطدُامُ
جاءَ يُزْكِي حرارةَ الحبِ فينا
فَاسْتَوَى الشِّعرُ وابتدا الإلهامُ

وظلَّ دعبلُ الخزاعيُ يؤشرُ على موضعِ الهمِّ حينَ قال([٢٥]):

لا تعجبي يا سلم من رجل
ضحك المشيب برأسه فبكى

وعلى هذا ظل الشيب في الشعر العربي يراوح في وصفه بين مدحه وذمه.

ثالثا: ذَمّ الخِضَابِ

يتبينُ من استقراءِ الموقفِ من الشيبِ، ارتباطُهُ بتعليلِ الخضابِ، فمنْ أعجَبَهُ الخضابُ مالَ إلى مدحِهِ أو تعليلِ قبولِهِ لَه، ومَنْ لم يعجبْهُ الشيبُ وقفَ مهاجماً ورافضاً له، ومحاولاً إخفاءَهُ عمن يُحبُّ بالدرجةِ الأولى، ولعلَّ أكثرَ ما يرتبطُ ذكرُ الشيبِ بأمرين، الأول: رفضُ الكِبَرِ لما يمثلُهُ من عجزٍ وضعفٍ، والشيبُ في الغالبِ لا يظهرُ إلا في الكبرِ. والثاني: عندما يُخَيَّلُ إليهِ أن الحبيبةَ ترفُضُهُ بسبب الشيب. ومن الأمثلة عليه قول ابن طباطبا العلوي([٢٦]):

قالتْ: أراكَ خَضَبْتَ الشيبَ، قلتُ لَها:
سَتَرْتُهُ عنكِ يا سَمَعِي، ويا بَصَرِي
فاستَضْحَكَتْ. ثمَ قالتْ مِنْ تَعَجُّبِهَا..
تَكاثَرَ الغِشُّ حتَّى صَارَ في الشَّعَرِ

الشاعر لا يحب الشيب، وأراد أن يعبر عن ذلك بطريقة فنية مقبولة فأدار هذا الحوار أو تخيله ليبين ذلك الموقف. ومن طريف المواقف في

محاربة الشيب ما ورد من شعر أبي دلف حين صور بغضه للشيب وكأنه في حرب معه فهو إذا أراد قصه قص سواه وهو يظل يضحك عليه، كناية عن استمرار الشيب، حتى لو أراد التخلص منه، لما استطاع. يقول[٢٧]:

تكوَّنني همّ لبيضاء نابته
لها بغضة في مضمر القلب ثابته
ومن عجب أني إذا رمتُ قصها
قصصت سواها وهي تضحك نابته

فالبغض للشيب يدفع صاحبه إلى السعي وراء التخلص منه، إلا أنه لا يستطيع ذلك، لأن الشيب إذا بدأ فلا ينتهي إلا بالخضاب، الذي يجد المرء نفسه مرغما عليه، فبغض الشيب وراء اللجوء إلى الاختضاب.

بل يذهب الشاعر إلى تعليل الخضاب؛ كراهة له، كأن يعلل وجوده بالحداد على الشباب، وفقد الشباب هو الفقد الممض الذي ليس بيد المرء حيلة تجاهه، كما في قول ابن سهل النوبختي[٢٨]:

لا أخضب الشيب للغواني
أبغي به عندها ودادا
لكن خضابي على شبابي
لبست من بعده حدادا

وفي صورة قريبة يقول شاعر عربي منكرا أنه خضب شعره، ولكن حظه هو المخضب، فانعكس خضاب الحظ على لون الشعر، وذلك – كالعادة – في رده على من تسأله عن خضاب شعره[٢٩]:

وقالوا قد كبرت كما علمنا
وأنت اليوم في سن الشباب
وقد صارت شعور الناس بيضاً
وشعرك مثل أجنحة الغراب
ولم تخضب فأين الشيب ولى
ألم يك ذا من العجب العجاب
فأخبرني بربك كيف هذا
فقلت جعلت من حظي خضابي

ولكن هل يدوم الخضاب!؟ لا، لأن مصيره إلى زوال، ومن يرجو عمارة وجهه بالخضاب لا بد أنه واهم إذا تمنى دوام ذلك، يقول الشاعر[٣٠]:

ما عذر من فقد الشباب وغيرت
منه مفارق رأسه بخضاب

يرجو عمارة وجهه بخضابه
ومصير كل عمارة لخراب

وما زال الشعراء يبحثون عن حسن تعليل للخضاب، كلها تصب في نهر الكراهية للشيب وللمشيب، ومن ذلك قول للحسن بن أحمد الفارسي النحوي في الخضاب (ولم يكن شاعرا)،[٣١]:

خضبت الشيب لما كان يباً
وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل
ولا عيباً خشيت ولا عتابا
ولكن الشباب بدا ذميماً
فصيرت الخضاب له عقابا

ولعل الوقوف عند الخضاب وحقيقته مما لفت نظر الشعراء إليه، فقالوا فيه حتى أنهم اعترفوا صراحة به واقعا لا بد منه، بل ويردون على من يطلب منهم التخضب ببيان كراهتهم له واعترافهم به، ومع ذلك يخضبون، من ذلك قول الشاعر يحيى بن الحكم البكري الأندلسي[٣٢]:

بكرت تحسن لي سواد ضبابي
فكأن ذاك يعيدني لشبابي
ما الشيب عندي والخضاب واصف
الا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا
فيصير ما سترت به لذهاب
لا تنكري وضح المشيب فإنما
هو زهرة الإفهام والألباب
فلدي ما تهوين من زهو الصبا
وطلاوة الأخلاق والآداب

لعل هذه النماذج كفيلة أن تعكس صورة واضحة عن ذم الخضاب في الشعر العربي. وهو ذم يجعلنا ندخل إلى أعماق الشاعر لنجد فيه ما يسوغ حبه للحياة وكرهه لاقتراب الموت الذي يؤشر عليه صراحة بدء انتشار الشيب في الشَعرِ.

رابعاً: مَدْحُ الخِضَابِ

أما مدح الخضاب ففيه رؤى مخلقة وغير مخلقة في آفاق الشعر العربي، قديمه وحديثه؛ فقد ذهب الشعراء إلى مدح الخضاب لأنه يبين بعض ملامح جمال الحبيبة، أو يضفي جمالا على جمالها، وقد ظل خضاب الأكف مرتبطا بجانب جمالي في المرأة دون الرجل، ومن ذلك قول

النابغة الذبياني في وصف المتجردة (زوجة النعمان بن المنذر)[٣٣]:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
فتناولته واتقتنا باليد
بمخضب رخص كأن بنانه
عنم يكاد من اللطافة يعقد

إذ يصور المشهد وكأنه صورة متحركة، واصفا أطراف أصابعها بأغصان شجرة العنم المعروف بليونته وجماله ورقته واستقامته، ليضفي على جمالها خجلا محببا ويكتمل المشهد؛ فخضاب الأكف أضاف معنى معنوياً إلى معناه الحسي. ومنه أيضا قول الشاعر أبي الغنائم الحمصي واصفا ذلك الجمال المتشكل بالخضاب المنقوش على أطراف الأصابع بالسمك الزجاجي الموجود داخل شبكة من الزبرجد[٣٤]:

خود كأنَّ بنانَها في
خضرةِ النقشِ المزرَّد
سمكٌ من البلُّورِ في
شَبَكٍ تكَوَّنَ من زبرجَد

وكأنها من شدة جمالها ذات شفافية عالية، يزينها لون الخضاب المائل للخضرة، وتعطي الألوان للمشهد جمالية خاصة، فشفافيتها وخضرة النقش والبلور والزبرجد. وتدخل ألوان الخضاب في رقتها في العتاب على البعد ونكث العهود من الحبيبة، يقول الشاعر[٣٥]:

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها
فليس لمخضوب البنان يمين

أراد الشاعر أن يقول أنها تبالغ في الاهتمام بزينتها، ولهذا فليس لها عهد؛ لأنها أجمل من أن تهتم بأمر صغير كهذا، وحتى لو قطعت على نفسها عهداً بعدم نسيانه في حال بعدها إلا أنها لا تلزم نفسها بالوفاء به. ومضى القيرواني يعاتب حبيبته التي ظن أنها خطبت لغيره، قائلا[٣٦]:

ولما تلاقينا على سفح رامة
وقلبي من الشوق العظيم تسعرا
ورمت بأن أبدي عظيم لواعجي
رأيت بنان العامرية أحمرا
فقلت خضبت الكف بعد فراقنا
فما هذا شأن المحبين في الورى
وأوسعتها بالعتب شأن أولي الهوى

فقالت لعمر الله ذلك ما جرى
ولكنني لما أضر بي الهوى
وعيناي بعد البعد لم تذق الكرى
وقد ذبلت فيَّ محاسن زهرتي
بكيت دما حتى بللت به الثرى

وتندرج هذه الأبيات في باب حسن التعليل، فبعد فراقهما ظلت تبكي على فراقه، حتى بللت الثرى، وكانت تمسح بأناملها مدامعها، ولكثرتها صبغت البنان بالخضاب. وفي حين يذهب بعض الشعراء إلى وصف جماليات الخضاب على أكف النساء، يذهب المتنبي إلى رفض الخضاب والقبول بالطبيعي؛ فالنساء نوعان؛ النوع الأول: المتحضرات اللواتي يعتمدن في زينتهن على الخضاب والأصباغ، فجمالهن مصنوع. والنوع الثاني:البدويات اللواتي يتركن جمالهن الطبيعي كما هو، لهذا فقد قرر ترك الخضاب ليكون طبيعيا، يقول(٣٧):

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ومن هوى كل من ليست مموهة
تركت لون مشيبي غير مخضوب

في حين يذهب علي أبو الريش إلى التغزل بالمتجملة بالأصباغ، ويصف مظاهر ذلك الجمال، فيقول(٣٨):

بعيدك أزهر الحنا نقوشا
كزخرفة من الصحن الممرمر
وكف ناصع بيدي بريقا
كبرق شقشق الدنيا وأسفر
وصبح صافح الحنا انصياعا
لكف يانع الأطراف أحمر
يذوب القلب للحنا اشتياقا
لغيد صاغها الحنا وعطر

وعلى هذا الأساس يكون الخضاب انعكاسا لجو نفسي، وطبيعة ذوقية خاصة، بغض النظر عن الزمن الذي قيلت فيه القصيدة، فمنذ زمن المتنبي كان الخضاب بين محب وكاره، وكذا كان في العصر الحديث، لذا لا يمكن الجزم بتفضيل أحدهما على الآخر، وقد ظل عند الشعراء كذلك.

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. كان هذا البحث رحلة في أعماق بعض الشعراء الذين ذكروا الشيب والخضاب في شعرهم، فعرض لمفهوم الخضاب في اللغة والاصطلاح، ثم للخضاب في الشعر العربي، ثم راح إلى البحث في مدح الخضاب وذمه في الشعر. ومن الواضح من خلال استقراء هذه النصوص جميعا أن من رفض الشيب ومن تقبله كلاهما، لم يحبا الشيب، ولكن بعضهم تقبله على مضض، وحاول تعليل قبوله، وفي التعليل نفسه ما يفضح رفضه المبطن؛ فلو قبله حقيقة لما راح يبحث عن مسوغات لقبوله وتعليلات لإقناع الآخرين أنه يقبله، فلا أحد مثلا يسوغ حبه للقوة، أو الشجاعة؛ لأن الإنسان يحبهما بطبعه. وبذلك فقد كشفت هذه الأشعار عن جانب مخبوء في نفسية كل شاعر؛ وهذا الجانب هو رفض العجز والشيخوخة والطريق المؤدي إلى نهاية العمر، وحب الحياة والتمسك بها، وكل شاعر عبر عن تلك الفكرة بطريقة مختلفة، بعضهم عن طريق رفض الشيب وقبول الخضاب ومحاولة تغيير الواقع الذي ألم به، وآخرون عن طريق قبول الشيب ومحاولة تسويغ وجوده وإقناع النفس به.

وكانت نتائج هذا البحث على النحو الآتي:

- لا يختلف معنى الخضاب في اللغة عن معناه في الاصطلاح، فكلاهما يعني صبغ الشعر أو الأكف بألوان أبرزها الأحمر.
- ورد الخضاب في الشعر العربي في جميع العصور، وجله مرتبط بالشيب.
- جاء ذم الخضاب في الشعر ليبين أن الشعراء يحاولون رفض واقع فرض عليهم، وليس بأيديهم رفضه، ولكنهم يحاولون تسويغ وجوده ليتقبلوه على مضض.
- وجاء مدح الخضاب ليكشف عن زيف موقف يتقبل التقدم في العمر،

ولكنه يفضح ما في نفس صاحبه من كراهية للشيب ولبداية طريق نهاية العمر.

- لم يؤثر الزمن في الموقف من الشيب والخضاب، فقد كان في كل زمن من يحب الخضاب، وفيه من يكرهه.

نرجو الله تعالى أن نكون وفقنا في عرض الفكرة ومناقشتها، فإن أخفقنا فمن أنفسنا وإن أصبنا فبفضل من الله تعالى وتوفيقه.

والحمد لله رب العالمين

Abstract
The Concept of Pigment in Arabic Poetry

This research observes the presence of pigment in the consciousness of Arab Poets through investigating the concept of pigment in language and art and to highlight it's images in Arabic poetry, in addition to analyze the horizons of either praising or condemning it. It has been found that pigment in Arabic poetry has two tracks; technical and psychological, the technical one where the poet tries to present his expressions in an elevated manner that suits the charming of the poem which he intends to, on the other hand, the psychological track is the one that the poet doesn't intend to express his inner feelings including wish or fear or even direct love, but the respondent to this kind of poetry has the ability to penetrate the poet's inner feelings and analyze them.

Key words: Pigment, Arabic Poetry.

الهوامش:

[1]- الصفدي. صلاح الدين:الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ص٩٦٥.

[2]- ينظر: الغرباني: خالد بن محمد: إفادة الفضلاء ببعض أحكام الحناء، وقد ذكر رسائل كثيرة في الخضاب والحناء منها رسالة قسطا ابن لوقا البعلبكي (رسالة في الخضاب) ، المقدمة.

[3]- ابن منظور: لسان العرب، ١١٧/٤، مادة (خَضَبَ).

[4]- الجوهري: الصحاح في اللغة، مادة (خضب).

[5]- اللسان: (خضب).

[6]- السابق.

[7]- السابق.

[8]- ابن فارس: مقاييس اللغة، (مادة (خضب).

[9]- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ص١٠٣ مادة (خضب).

[10]- الفراهيدي: العين، مادة،ص٧٠١، (خضب)

[11]-ابن منظور: لسان العرب، ١١٨/٤، مادة (خضب).

[12]-ابن حجر: فتح الباري، ٣٥٥/١٠.

[13]-الديلمي: الفردوس، ٢٩/١-٣٠.

[14]-ابن حجر: الإصابة، ٣٧٥/٤.

[15]- ابن الورد.عروة: ديوانه، تحقيق: أسماء أبو بكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٨٢.

[16]- ابن شداد. عنترة: ديوانه، على موقع الحكواتي، بصيغة بي دي اف، ص٩٤، على الرابط: http://al-hakawati.net/arabic/Civilizations/diwanindex1a2.pdf

[17]- البرقوقي، شرح ديوان المتنبي،ج/١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ٢٦٩.

[18]- ديوانه، ٨٦٧/١. موقع الموسوعة الشاملة، وعلى موقع أدب، على الرابط:www.adab.com

[19]- ديوانه،٥٠٣/١، على موقع الموسوعة الشاملة، وعلى موقع أدب، على الرابط: www.adab.com

[20]-الرضي. الشريف: ديوانه، دار صادر ودار بيروت، مج/٢، ١٩٦١م، ص١٢٤-١٢٥.

[21]- الحمداني. أبو فراس: الديوان، شرح د. خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٤م، ص٣٣.

[٢٢]–ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٣، ٢٠٠٢م، ص١٦٧.

[٢٣]–البارودي. محمود سامي: الديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٢٤.

[٢٤]–سليم. ثروت: قصيدة حوار مع حبيبتي، ديوان الشاعر ثروت سليم، على موقع النيل والفرات، تاريخ الأخذ ٢٠١٧/١/٣١م، على الرابط: http://www.nileforat.com/archive/index.php/f-22.html

[٢٥]–الخزاعي. دعبل بن علي: ديوانه، شرح: حسن سيد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩٤، ص١٠٦.

[٢٦]– اليوسي. الحسن بن مسعود بن محمد: زهر الأكم في الأمثال والحكم، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، ١٩٨١م، ج/٣، ص١١٥.

[٢٧]– الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، ص٢٦٩.

[٢٨]– الأمين. محسن: أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،ب.ت، ص٣٨٨(ويشير صاحب أعيان الشيعة إلى أنه لم يُعرف لأبي سهل النوبختي شعر، ويقول: والظاهر أنه المترجم)

[٢٩]–عبده. طانيوس: ديوانه، على موقع موسوعة بوابة الشعراء، شعراء الفصحى في العصر الحديث، ديوان طانيوس عبدة، ص٧٢.

[٣٠٣٠]–الكتبي. محمد حسن الشيخ: الشيب والشباب في الأدب العربي، مطبعة الآداب، النجف، العراق، ط/١، ١٩٧٢، ص١٣٢، (ولم يذكر المؤلف قائله).

[٣١]– اليوسي. الحسن: زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق: محمد حجي، دار الثقافة، المغرب، ١٩٨١م، ج/١، ص٢٧٦.

[٣٢]–أبو الخطاب. عمر بن حسن بن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياريوزملاؤه،مراجعة:د.طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت،١٩٥٥م، ج/١، ص٤١.

[٣٣]–الذبياني. النابغة: ديوانه، شرح وتعليق: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩١م، ٧١–٧٢.

[٣٤]–المراغي. أحمد بن مصطفى: علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، على موقع المكتبة الشاملة، ص٢١٥. على الرابط: www.shamela.ws

[٣٥]– التبريزي. يحيى بن علي: شرح ديوان الحماسة، دار القلم، بيروت، ص٥٥٤.والبيت لأبي يعقوب الطالقاني.

[٣٦]–القيرواني. صالح السويسي: بوابة الشعراء، على الرابط:

http://www.poetsgate.com/ViewPoem.aspx?id=152513

[٣٧]-المتنبي: ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ج/١، ١٩٨٦م، ص٢٩١-٢٩٢.

[٣٨]-أبو الريش. علي: الحناء العربية زينة وطقوس اجتماعية، المجلة العربية الكترونية، على الرابط: http://www.arabicmagazine.com/arabic/ArticleDetails.aspx?Id=2396

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع:

١- الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ط/١، ١٩٩٩م.

٢- الأمين. محسن: أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،ب.ت.

٣- البارودي. محمود سامي: الديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م.

٤- البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، ج/١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

٥- التبريزي. يحيى بن علي: شرح ديوان الحماسة، دار القلم، بيروت، ب.ت.

٦- الجوهري. إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد العطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط/٤، ١٩٩٠م.

٧- الحمداني. أبو فراس: الديوان، شرح: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/٢، ١٩٩٤م.

٨- الخزاعي. دعبل بن علي: ديوانه، شرح: حسن سيد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩٤.

٩- أبو الخطاب. عمر بن حسن بن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب،

تح: إبراهيم الأبياري وزملائه،مراجعة:د.طه حسين، ج/١، دار العلم للجميع، بيروت،١٩٥٥م.

١٠-الذبياني. النابغة: ديوانه، شرح وتعليق: حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٩٩١م.

١١-الرضي. الشريف: ديوانه، دار صادر ودار بيروت، مج/٢، ١٩٦١م.

١٢-ابن الرومي: ديوانه، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/٣، ٢٠٠٢م.

١٣-أبو الريش. علي: الحناء العربية زينة وطقوس اجتماعية، المجلة العربية، الكترونية، على الرابط:
http://www.arabicmagazine.com/arabic/ArticleDetails

١٤-سليم. ثروت: ديوانه، على موقع النيل والفرات، تاريخ الأخذ٢٠١٧/١/٣١م، على الرابط:
http://www.nileforat.com/archive/index.php/f-22.html

١٥-أبو شجاع. الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، تح: السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

١٦-ابن شداد. عنترة: ديوانه، على موقع الحكواتي، بصيغة بي دي اف، على الرابط:
http://alhakawati.net/arabic/Civilizations/diwanindex1a2.pdf

١٧-الصفدي. صلاح الدين: الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٨-عبده. طانيوس: ديوانه، على موقع موسوعة بوابة الشعراء، شعراء الفصحى في العصر الحديث، ديوان طانيوس عبدة. على الرابط: www.poetsgate.com

١٩-العسقلاني. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، المكتبة المصرية، ٢٠١٤م.

٢٠-العسقلاني. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢١-الغرباني. خالد بن محمد: إفادة الفضلاء ببعض أحكام الحناء، المكتبة العربية، على الرابط:
www.arablib.com/main?view

٢٢- ابن فارس. أحمد: مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٣-الفراهيدي. الخليل بن أحمد: العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ط/٢٠١٠م.

٢٤-الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: أنس الشامي وزكريا أحمد، دار الحديث، القاهرة، ب.ت.

٢٥-القيرواني. صالح السويسي: بوابة الشعراء، على الرابط: http://www.poetsgate.com/ViewPoem.aspx?id=152513

٢٦-الكتبي. محمد حسن الشيخ: الشيب والشباب في الأدب العربي، مطبعة الآداب، النجف، العراق، ط/١،١٩٧٢م.

٢٧-المراغي. أحمد بن مصطفى: علوم البلاغة (البيان، المعاني، البديع)، على موقع المكتبة الشاملة، على الرابط: www.shamela.ws

٢٨-المعري. أبو العلاء: ديوانه، ج/١، موقع الموسوعة الشاملة، وعلى موقع أدب، على الرابط: www.adab.com

٢٩-ابن منظور. محمد بن مكرم: لسان العرب، ط/٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

٣٠-ابن الورد. عروة: ديوانه، تحقيق: أسماء أبو بكر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٣١-اليوسي. الحسن بن مسعود بن محمد: زهر الأكم في الأمثال والحكم، تح: محمد حجي، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، ١٩٨١م